أيّ شاعر، في أيّ أندلس، زجَرتْ شراكُ أهدابه طيرَ النوم؟

النوم طائران قطعت أسنانُ الفخاخ لسانيهما، يتناقران يتغازلان، يحومان ويبتعدان، ثم يقتربان ويحطّان فيعاودان الابتعاد. الآن وقد غاضَ طوفان الصُّور، يصعب إغراؤهما – حمامةٌ بغصن الزيتون لتكليل العروس، وغرابٌ بغصن الشوك لتتويج الشهيد.

المؤرّق مشرع عينيه- إحداهما بيضة الحمامة والأخرى بيضة الغراب. كلُّ رمش عود من عيدان العشّ، أرضه ندية مدفّأة بالدمع. العين قبة من قباب الروح، قصرٌ لا باب له يطوف حوله السندباد وحيداً على جزيرة مهجورة.

—

قطرة نار في قعر النظرة، آخر النفق الذي يشقّه الضوء عبر الجسم الزجاجي. يرتطم الشعاع بالقاع فيدميه. ما يلوح من هذا النزيف نقطة قرمزية كالحروف فوق أبواب المومسات، كشعاع الليزر في نزهة المساء ينقّله متحرّشون من عجيزةٍ غافلة لأخرى، كالنقطة ينتظر مراهق وحيد ظهورها بعد انتصاف الليل فيما الأوصياء نائمون- القطرة القانية النابضة في زاوية الشاشة، شافيةُ المرضى ومنجّستهم:

قمرٌ من الدم فوق ساحات الوغى في فيلم إباحي؛ علامةُ بدء التسجيل على كاميرا الموت حين ينطلق المشهد الأول من الحياة؛ إعصارٌ على كوكب المشتري؛ كاشف الحرارة في مفكّ كهرباء؛ لؤلؤةٌ يفصدها الحجّام من نتن الأوهام في لحم مجنون؛ ياقوتةٌ في خاتم قوّاد؛ عينُ ذبابة تلمّعها بقائمتيها الأماميتين ومقصّ جناحيها لتطير عن بركة الدم وتحطّ على منديل كُوّرت فيه بقايا اللذة، بقايا الذنب...

لا قانون للعتمة إذا انبجستْ من الرؤوس. الصواعق تشقّ بالفؤوس شجر الأجساد. الفاقع سامّ. الداكن متفسّخ.

المكان غابة سوداء- في دبال أرضها ستضرب العين الهاربة برموشها وتتجذّر وتتوارى، مرتجفة مما جرى، مرتجفة مما سيجري، من انقضاض الخائفين على ما يخافون. ستنبض عروق بياضها بدم الزهور، وتفور النمال من بصيص الحدقة. وذات يوم، ذات يوم قد أتى، سيصل المنتقمون ويقتلعونها بأظفارهم ويمضغونها ظافرين كحبة كمأ أنضجتها رعود الربيع تحت حقلٍ من السيكلامان.

هكذا تُستوفى من خزي المفلسين دِيّة الأجداد. العين التي ترمقُ شزراً تُكْسَر.

العينُ بالعين-خوف لحظة، خوف العمر.

—

الأحمر وراء الحدقة آتٍ من مجمرة القلب. شبحٌ يشعل شمعة وراء العينين أو يرفع وردة.

العنقاء معتنَقُ الرومانسيين وطريدتهم- طيرٌ هو طُهر القلب، النيران مهده ولحده، بيته وطعامه-

كلّما أضاء لهم برقٌ هُرعت أرواحهم إلى نوافذ العيون

وعادوا من صبرهم صِفْرَ الأيادي،

فخاخهم فارغة إلا من فتات الطُّعم الذي ركَزوه:

دودة كبرياء تلوّثْ في تفاحة القلب،

دمعة زرقاء...

فإذا انتهى البرْد وأزغبتِ الأرض

رسم الموتى بمنثور الحَبّ

حيث نُصبت الفخاخ

عيوناً خضراء مالئُها التراب.

—

بذراعين مفتوحتين يُنادى الطفل:

"إليّ ركضاً يا بيتي!"

الابن منزلٌ ينامُ فيه أجداده كلُّهم مدَّثرين بلحاف واحد.

جلده سماؤهم الأولى-

تحتها تمرّ العربات محمّلة بالأكباش وسلالِ العسل وأجبانٍ كالنهود في أغاني القوّالين.

بَنَتْهُ قطرةٌ مُنِيتْ في الظلام. لا فساد في المبنى-

نقص التبن مقصود منذ البدء ليتشقّق التراب وتنشأ الأفواه والفروج والعيون...

لتدخل الروح وتخرج أنّى شاءت

مثل أغنية قديمة تتهادى بين شبّاكين مفتوحين

ولا يلتقط العابرون كلماتِها.

استتر الفم بالصمت والعينُ بالجفن

ستارة العذراء غشاء كورقة توت مثقّبة بأفواه المنّ

ســـــــترقّطها عنـــــــد الســـــــقوط بضـــــــع قطـــــــرات

دم.

الطفلُ بيتُ أمه

لاؤه سبّاقةٌ نعَمَه

الريح باذرةٌ سطحَه بالزهور البرية

والقمر بعينه الباردة يذرو الملح ليقتل الجذور

وإلا تنقّط السقف في المطر ونشجت المزاريب

ونُودي على الموت سِراعاً ليسدّ الثغرات

قبل أن تنطبق الحجرات على رؤوس النائمين.

—

النهارُ مخرِجٌ ما يَرهَبون، والقابلةُ الفجر

ليلةٌ صلعاء قصاصها أن تجزَّ شعرها كلّه بمقصّ الولادات.

مؤلمٌ نبضانُ النظرة كجُرح الناقِه في الخطوات الأولى بعد استلقاء طويل. الباهر أليم. الرأرأة إذا بوغتت العين بسلاطة الضوء. يضيق سوادها حتى يستدقّ البؤبؤ كالدبوس. العالم كله يُقذف من ثقب ويولد من ثقب ويُدفن في آخر إذا سخَتِ الأقدار. العقل مهرّبٌ يُجزِل الوعود، مرجئاً الموعد ليلةً بعد ليلة، حاملاً كلّ مرة بضع كلمات في زورق النظرة، فارّة من الظلّ إلى الظلّ، من زنزانة الخوف إلى سجن الرجاء.

مخاض النظرة عسير آنذاك- تشرخ بقبضتيها الصغيرتين انزمامَ الجفنين، يزمّلها الدمع ويتقدّمها كرأس الوليد يتقدّم ببطء في نفق المهبل حتى تفاجئ برودةُ الهواء رأسَهُ البليل.

النظرة تستصرخ، يائسة في ألم النور.

—

داخل الرأس يتلقّف كلّ الصور.

تتقطّع المعرفة، خافقة كالنجمِ كالندم، ناراً مشقوقة اللسان يحذرها الأطفال والمجانين.

رتابة قطراتها لا تثقب الصخر، ولا تحفر ما تحت الحصون لتنساب هادئة والعالم ينهار وراءها.

تخلّف المعرفة فراغاً مخيفاً أحياناً. ينحبس هذا الفراغ متكثّفاً خلف العينين فيضغطهما كالفساء الذي يُخصب به ديكٌ دجاجةً؛ ما يتبقى من ريح الخصوبة فقاعةٌ محبوسة تحت قشرة بيضة.

—

بأيّ عين يُقْرأ

ما انتهى على الأرض

ولا ينتهي في القلب؟

سخونة الدم لا تدفئ أهل الأربعاء. توقّف جريانه ولم تتوقّف الحياة.

في هذا المِرجل، البرد قاطنٌ صميمَ اليدين، محَّ العظام.

عينان تستطلعان. عينان غابرتان تتفقّدان عينين غائبتين.

لا يُقاس الغياب بالزمان وسنوات الضوء. لا شيء يُرى في كلّ الأنحاء.

لِمَن أصمّتْه فظاظة الكلمات وأصمتته وأعمَتْه، لمن شقّقت عقله بالهزّات وجفّفت روحه كاللحاء:

مَن تشوّه بارز مَن سلم ومَن سلم؟

الماضي السيفُ. الحاضر مصلوب.

الجسد عشبةٌ ترقص-

وُريقةُ عشب تدوسها الأظلاف والعجلات

يستعطفها المسحوقون

تمضغها القطط

تتأمّلها الراهبات

ملتمعةً بقطرةٍ من بول الشيطان

النظرة هي الموسيقا

الكلمات بلهاء وسخة

العين ترى العالم انتهى وما بدأتِ الروح

استوى الداخل والخارج، الظاهر والباطن، السافل والعالي، السرّ والعلن، العقل والجنون، الفحولة والعنانة، الظل والضوء، الذاكرة والنسيان، المستوحش والمستأنس، البداية والنهاية، الأبيض والأسود، الأول والتالي، الرجل والمرأة، الخوف والرغبة، مَن رأى ومَن لم يرَ، قلق السؤال وقلق الجواب، كل الوميض الذي أطفأ العيون...

حتى سجا الليل وسكن الهواء.

صمَتَ الصمت.

القمر بازغ كربّ إبراهيم. العقل خرابٌ مضاء مثل حلب.

ما عادت بأحد حاجةٌ إلى مواصلة الهروب وتغيير الأسماء.

العينُ النابعة من الليل ينبوعُ الليل، ولا منبع لهذا النور. لا ذكرى. لا تاريخ. لا قواميس.

لا وِجهةَ لهذا الوجه. لا قصة في هذه القصة. لا جدوى من أيّ شرح.

*

صدر حديثاً، عن دار "خان الجنوب" في برلين، كتاب "الكلمة المرفوضة" لجولان حاجي. يضمّ الكتاب مقدمة نثرية في قسمين: أولهما قراءة في ديوان "أجزاء الحيوان" للشاعر السوري فؤاد م. فؤاد، والثاني قراءة في علوم النظر، يليهما نص شعري طويل عنوانه "المنْفذان".

صمم الكتاب فادي عبد النور. لوحة الغلاف والرسوم الداخلية منتقاة من مجموعة "الطاووس" للفنان السوري وليد المصري. جمعت الكاتب والرسام لقاءات عديدة منذ 2012، والتعاون بينهما مستمرّ من أجل أعمال أخرى قادمة.

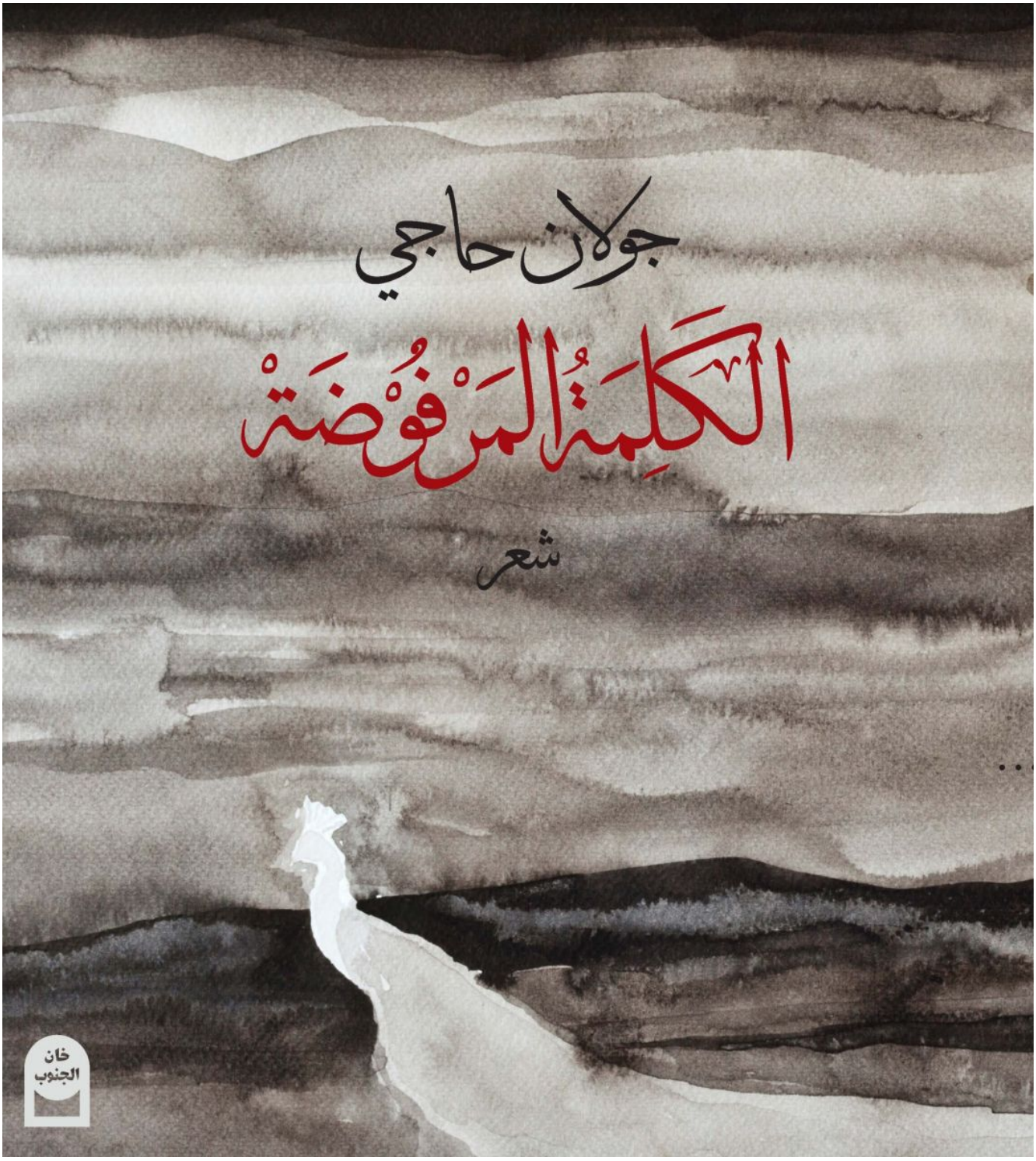
جولان حاجي
الكَلِمَةُ المَرْفُوضَة
شعر
خان الجنوب

المنْفَذان

الكاتب: جولان حاجي